١٠ ـ صفية بنت حيي رضي الله عنها

قال «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»: «صفية بنت حيي بن أخطب بن شعبة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النضير بن النحام بن تحوم» من بني إسرائيل، من سبط «هارون بن عمران»، وأمها «برة بنت سموأل».

قال أبو عبيدة: كانت «صفية بنت حيي» عند «سلام بن مشكم» وكان شاعراً، ثم خلف عليها «كنانة بن أبي الحقيق» وهو شاعر فقتل يوم خيبر، وتزوجها النبي ﷺ في سنة سبع من الهجرة[١].

قال «ابن زبالة» في «المنتخب»: إن اسم «صفية» رضي الله عنها هو «حبيبة»، ولكنها سميت «صفية» لأنها كانت «صفية» ﷺ يوم خيبر. وكانت كنيتها «أم يحيى».

وحين كانت «صفية» عند «كنانة» رأت في منامها رؤيا، فلما استيقظت قصتها عليه، فقد أخرج الطبراني برجال الصحيح، وابن حبان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان بعيني «صفية» خضرة، فقال رسول الله ﷺ: «**ما بعينيك؟**» فقالت: قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمراً وقع في حَجْري، فلطمني، وقال: أتريدين ملك يثرب؟ قالت: وما كان أبغض إلي من رسول الله ﷺ، قتل أبي، ثم قتل زوجي، فما زال يعتذر إليَّ، ويقول: «**يا صفية! إن أباك ألَّب علي العرب، وفعل وفعل**» حتى ذهب ذلك من نفسي.

وذكر «أبو عمر»، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس؛ أن النبي ﷺ اشترى «صفية بنت حيي» بسبعة أرؤس، وخالفه عبد العزيز بن صهيب وغيره[٢].

وأخرج «المحب الطبري» في «السمط الثمين» عن أنس رضي الله عنه؛ أن

---

(١) الاستيعاب (٤/ ١٨٧١)، و(ابن حبان) (١٦٩٧)، والسمط الثمين (٢٠٦).
(٢) الاستيعاب (٤/ ١٨٧١).

رسول الله ﷺ لما افتتح خيبر وجمع السبي، جاءه «دحية» فقال: يا رسول الله! أعطني جارية من السبي، فقال: «**اذهب وخذ جارية**»، فأخذ «صفية بنت حيي»، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أعطيت «دحية»، «صفية بنت حيي» سيدة قريظة والنضير، ما تصلح إلا لك، فقال: «**ادعوه بها، فجاء بها**».

قال: فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: «**خذ جارية من السبي غيرها**».

قال: وأعتقها وتزوجها، فقال له ثابت، أي: لأنس راوي الحديث: يا أبا حمزة! ما أصدقها؟ قال: نفسها، وتزوجها، حتى إذا كان بالطريق، جهزتها له «أم سُلَيْم»، فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي ﷺ عروساً، فقال: «**من كان عنده شيء فليجئ به**»، قال: وبسط نِطَعاً؛ قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، فحاسوا حيساً، فكانت وليمة رسول الله ﷺ[1].

وفي رواية: فقال الناس: لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد؟ قالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد، فلما أراد أن يركب حجبها.

وفي رواية قال: فانطلقنا حتى إذا رأينا جدار المدينة هششنا إليها، فرفعنا مطايانا ـ أي: أسرعنا في المشي ـ، ورفع رسول الله ﷺ مَطِيَّتَهُ.

قال: و«صفية» خلفه قد أردفها. قال: فعثرت مطية رسول الله ﷺ فصُرِع وصُرِعَت، قال: فليس أحد من الناس ينظر إليه وإليها، حتى قام رسول الله ﷺ فسترها، فأتيناه، فقال: «**لم نُضَرَّ**».

قال: فدخلنا المدينة فخرجن جواري نسائه يتراءينها فيها، ويشمتن بصرعتها[2].

وروى المحب أيضاً: عن جابر: أن النبي ﷺ أتى بصفية من خيبر، وأنه قتل أباها وأخاها وزوجها، وأنه قال لبلال: خذ بيد «صفية» فأخذ بيدها، فمر بها بين المَقتولين، فكره ذلك رسول الله ﷺ، حتى رئي في وجهه، ثم قام

(١) السمط الثمين (٢٠٣، ٢٠٤).
(٢) السمط الثمين (٢٠٣، ٢٠٤).

رسول الله ﷺ فدخل عليها، فنزعت شيئاً كانت عليه جالسة، فألقته لرسول الله ﷺ، ثم خيرها رسول الله ﷺ بين أن يعتقها، فترجع إلى من بقي من أهلها، أو تسلم فيتخذها لنفسه، فقالت: أختار الله ورسوله ﷺ.

فلما كان عند رواحه أحقب بعيره ـ أي: جعل له حقيبة ـ، ثم خرجت تمشي حتى ثنى لها ركبته لتطأ على فخذه، فأجَلَّتْ رسول الله ﷺ أن تضع قدمها على فخذه، فوضعت ركبتها على فخذه، فركبت، ثم ركب النبي ﷺ، فألقى عليها كساء، ثم سار، فقال المسلمون: حجبها رسول الله ﷺ، حتى إذا كان على ستة أميال من خيبر، مال يريد أن يعرِّس بها، فأبت «صفية» ﵂ فوجدَ النبي ﷺ في نفسه عليها، فلما كان بالصهباء مال إلى دومة ـ دوحة ـ هنالك، فطاوعته، فقال: «**ما حملكِ على إبائك حين المنزل الأول؟**»

قالت: يا رسول الله! خشيت عليك قرب اليهود! فأعرس بها رسول الله ﷺ بالصهباء، وبات «أبو أيوب» ليله يحرس رسول الله ﷺ، يدور حول خباء رسول الله ﷺ، فلما سمع رسول الله ﷺ الوَطْءَ، قال: «**من هذا؟**».

قال: «أبو أيوب ـ خالد بن زيد»، فقال: «**مالك؟**»، فقال: ما نمت هذه الليلة مخافة هذه الجارية عليك، فأمره رسول الله ﷺ فرجع[1].

وعن أنس ﵁ قال: لما أخذ رسول الله ﷺ «صفية بنت حيي» ﵂ قال لها: هل لك فِيَّ؟ قالت: يا رسول الله! قد كنت أتمنى ذلك في الشرك، فكيف إذا أمكنني الله منه في الإسلام؟ فأعتقها رسول الله ﷺ، وتزوجها، أخرجه تمام من فرائده[2].

وقال «أبو عمر» في «الاستيعاب»: وكانت «صفية» حليمة عاقلة فاضلة، ورُوِّينا أن جارية لها أتت «عمر بن الخطاب» فقالت: إن «صفية» تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها «عمر»، فسألها، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به يوم الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً، وأنا أصلها.

---

(١) السمط الثمين (٢٠٤، ٢٠٥). وصفة الصفوة (٢/٤١٨).

(٢) السمط الثمين (٢٠٥).

قال: ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: الشيطان، قالت: اذهبي فأنت حرة[١].

إنها نفحة من نفحات الهدى الذي قبسته عن الحبيب الأعظم ﷺ وومضته من ضيائه الذي ملأ الوجود، وفاض على الخلق بالخير العميم.

وروى «ابن حجر» في «الإصابة»: وأخرج الترمذي من طريق «كنانة» مولى «صفية» أنها حدثته، قالت: دخل عليَّ النبي ﷺ، وقد بلغني عن «عائشة» و«حفصة» كلام، فذكرت له ذلك، فقال: «**ألا قلت: وكيف تكونان خيراً مني وزوجي «محمد»، وأبي «هارون» وعمي «موسى»؟**» وكان قد بلغها أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، نحن أزواجه وبنات عمه[٢].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما بلغ «صفية» أن «حَفْصَة» رضي الله عنها قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «**ما يبكيك؟**» قالت: قالت لي «حَفْصَة بنت عمر»: إني ابنة يهودي. فقال النبي ﷺ: «**إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟**» ثم قال: «**اتق الله، يا حَفْصَة!**»[٣].

وكان ﷺ شديد الرفق بها، كثير اللطف معها، لما يعلم من فرط محبتها له، وقد روى «ابن سعد» في طبقاته، عن زيد بن أسلم، قال: اجتمع نساء النبي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، واجتمع إليه نساؤه، فقالت «صفية بنت حيي»: إني والله! يا نبي الله! لوددت أن الذي بك بي، فغمزن أزواجه ببصرهن، فقال: «**مضمضن**» فقلن: من أي شيء؟ فقال: «**من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة**»[٤]. فيا لها من شهادة عظيمة من صاحب الخلق العظيم!.

وجاءت «صفية» إلى النبي ﷺ تزوره في معتكفه في العشر الأواخر من رمضان، فحدثته، ولما أرادت أن تنقلب قام معها يَقْلِبُها فمر بهما رجلان من

---

(١) الاستيعاب (٤/ ١٨٧٢).
(٢) الإصابة (٤/ ٢٥٥٨)، والترمذي (٣٨٩٢).
(٣) السمط الثمين (٢٠٦، ٢٠٧).
(٤) الإصابة (٤/ ٢٥٥٩).

الأنصار فسلما عليه، فقال لهما: **إنما هي «صفية بنت حيي»** فقالا: سبحان الله! يا رسول الله! وكَبُر عليهما، فقال ﷺ: **«إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً»**. رواه البخاري والمحب الطبري في السمط الثمين[١].

وروى «المحب الطبري» عن «صفية» رضي الله عنها قالت: حج رسول الله ﷺ بنسائه فلما كان في بعض الطريق برك بي جملي، وكنت من أحسرهن ظهراً ـ أي: أن الدابة التي تحملها ضعيفة ـ، فبكيت، فجاء النبي ﷺ، فجعل يمسح دموعي بردائه وبيده، وجعلت لا أزداد إلا بكاء، وهو ينهاني، فلما كثَّرتُ عليه، زبرني[٢]. أخرجه المُلَّا في سيرته.

وكان حب «صفية» رضي الله عنها لرسول الله ﷺ يزيدها تعلقاً بالقرآن الكريم وشغفاً بحديثه ﷺ فراحت تنهل منهما، وتستزيد، وروت عدة أحاديث، قيل: إنها بلغت العشرة، أحدها في الصحيحين.

وروى عنها «علي بن الحسين» و«كنانة» مولاها، و«عبد الله بن الحارث» الهاشمي، وسواهم.

وأخرج «أبو نعيم» في «حلية الأولياء» قال: عن عبد الله بن عبيدة: أن نفراً اجتمعوا في حجرة «صفية بنت حيي» زوج النبي ﷺ فذكروا الله، وتلوا القرآن، وسجدوا، فنادتهم «صفية»: هذا السجود، وتلاوة القرآن، فأين البكاء؟[٣].

ووصفها «أبو نعيم» في ترجمته لها، فقال: التقية الزاكية، ذات العين الباكية، «صفية» الصافية، زوجة النبي ﷺ.

ولم تكتف «صفية» رضي الله عنها، بتعلم القرآن، وحديث رسول الله ﷺ، بل تعدَّت ذلك إلى تعليمهما للناس، وزرع حبهما في نفوسهم، ودعتهم إلى التدبر والخشوع، وحثتهم على الحفظ ما استطاعوا، ولئن كان ذلك منها في حياة

(١) السمط الثمين (٢٠٨، ٢٠٩) والبخاري في كتاب الاعتكاف (١٩٣٠).
(٢) السمط الثمين (٢٠٧).
(٣) حلية الأولياء (٢/ ٥٨).

حبيبها وأسوتها رسول الله ﷺ، فإن ذلك قد زاد منها بعده لتملأ فراغها، وتشغل وقتها، وأي شيء أجدى من كتاب الله، وسنة مصطفاه؟ ولم تنسَ فضل الصدقة وما تعود به على صاحبها من الخير، فكانت تحث الناس عليها، وتكثر من البذل والإنفاق ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، ولم تنسَ «عثمان» ذا النورين يوم حصره ومنع القوت والماء عنه، فقد روى «كنانة» مولاها، فقال: كنت أقود بصفية لتردَّ عن «عثمان» فلقيها «الأشتر؛ مالك بن الحارث النخعي»، فضرب وجه بغلتها حتى مالت، فقالت: «ردُّوني، لا يفضحني هذا».

قال الحسن ـ أحد رواة السند ـ في حديثه: ثم وضعت خشباً بين منزلها ومنزل «عثمان» تنقل عليه الماء والطعام[1]. إنه لم تنسَ فضل «عثمان» وما بذله لله ولرسوله ﷺ وللمسلمين.

وفي شهر رمضان من سنة خمسين، وقيل: اثنتين وخمسين، وافتها المنية، وكانت مقبرة البقيع مستقرها، رحمها الله تعالى.

(١) الصالحي (٢٢٧)، والطبقات (٨/ ١٢٨)، والإصابة (٤/ ٢٥٥٩).